

مِحْنُ الْعُلَمَاءِ مَعَ السُّلْطَانِ (*)

مراجعة رضوان السيد

جاء في لسان العرب (مادة: محن): «المحنة واحدة المِحْن التي يُمْتَحَنُ بها الإنسان من بليةٍ نستجيرُ بكرم الله منها... وفي حديث الشعبي: المحنة بدعة؛ وهي أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه ويقول: فعلتَ كذا وفعلتَ كذا! فلا يزال به حتى يقول ما لم يفعلهُ أو ما لا يجوز قوله...». فالمحنة في اصطلاح المحدثين البلاء الذي يصيبُ الفرد أو الأفراد من الله أو من السلطان فيكون ذلك بمثابة التمهيص للثبات على الحق، والصرامة في التصدي للباطل أو الصبر عليه. أما الفتنة فهي البلاء الجماعي أو الاجتماعي في اصطلاح المحدثين أيضاً. ومع أن استعمال المفرد في القرآن الكريم قد جاء بالنسبة للأفراد أيضاً؛ لكنه تحوّل في مرويات السُّنة، ومصطلح المؤرخين للمعنى العام فصار علماً على الحرب الأهلية أو الحرب الداخلية. وكتابُ أبي العرب الذي بين أيدينا، والذي صدرت منه نشرتان في عامين متوالين؛ أصله مخطوطةٌ فريدةٌ بالمتحف البريطاني كانت منسوبة خطأً إلى غير مؤلفها ثم صحّح نسبها Kister في مقالةٍ له. لكنه ذهب إلى أن هذا النوع من التأليف أو هذا «الجنس الأدبي» يدخل في «أدب

(*) كتاب المِحْن لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (- ٢٣٣ هـ) تحقيق يحيى الجبوري (دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٣) ٤٧٥ ص + ٩١ ص فهرس/ وتحقيق ودراسة عمر سليمان العقيلي بدار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٩٨٤ - ٥٠٨ ص.

المقاتل» مثل مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني، وأسماء المغتالين لمحمد بن حبيب. والحق أن هذا التصنيف يدخل في باب آخر هو «كُتُبُ المَحَنِّ» مثل محنة الإمام أحمد لحنبل بن إسحاق بن حنبل، ومحنته للمقدسي، وكتاب المتوارين لعبد الغني بن سعيد الأزدي. إذ لا تنتهي المحنة دائماً أو غالباً بالقتل. والمقصود بهذا النوع من الكتب التشجيع على الصبر، وإيضاح عدم جدوى الخوف أو عدم فائدة الجبن. أما «أدب المقاتل» فالمقصود به تاريخي أو تحريضي؛ وينتهي دائماً بقتل الرجل أو استشهاد. ودوافع أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني لتأليف الكتاب واضحة. فقد عانى هو وأسرته نوعين من أنواع الامتحان والابتلاء: الامتحان السياسي على يد بني الأغلب ولاة إفريقية قبل الفاطميين؛ فقد اختلف معهم جدُّه الذي كان من وجهاء العرب، ووالياً على بعض النواحي واستمرت الخصومة في أعقابه. ثم كان الامتحان الديني على يد الفاطميين الذين يسميهم أبو العرب «بنو عُبيد». كان المذهب المالكي ما يزال طريّ العود عندما سيطر الفاطميون؛ وقد أرغموا الناس على الأخذ بالمذهب الإسماعيلي. فلما اشتد الأمر على العلماء انتهزوا فرصة ثورة أبي يزيد فثاروا هم أيضاً وساروا فحاصروا المهديّة لكن البربر هزموهم وفشلت الثورة؛ التي كان لأبي العرب دورٌ بارزٌ فيها فيما يبدو. ويظهر الأمران في الكتاب. فهناك روايات كثيرة عن سوء تصرف الأغالبة واضطهادهم للعلماء والناس (نشرة الجبوري ص ص ٢٧٤ - ٢٧٦، ٤٣٠، ٤٦٩) كما أن هناك أخباراً ضد الفاطميين (ص ص ٢٧٨ - ٢٧٩). لكن يبدو أن الكتاب أُلّف قبل النهوض ضد العبيديين وبعد معرفة اضطهادهم للمالكية إذ قتلوا بعض أصحاب ابن سحنون أستاذ أبي العرب، وجهروا برسومهم في الشعائر (معالم الإيمان للدباغ ٢٠٤/٢)؛ فجاء كتاب أبي العرب «عزاء لمن ابتلي بمثل ما ابتلي به الصالحون في صدر هذه الأمة» (ص ٢٨٣)؛ ولهذا ظلت الحملة على بني الأغلب أوضح إذ كان لذلك تاريخٌ في ذاكرته.

يقع أبو العرب في بدايات هذا النوع من أنواع التأليف؛ لذلك فإن الكتاب تظهر فيه أكثر معالم البدايات. فليس هناك ترتيبٌ معينٌ للقصص

والأحداث لا من الناحية التاريخية، ولا من الناحية الموضوعية. ويبدو أن نية المؤلف كانت ترتيب ذلك موضوعياً بدليل البطاقات الموجزة في المخطوط والتي جمع عليها المؤلف رؤوس الأبواب بقصد التفصيل بعد ذلك فيما يبدو؛ من مثل: ذكر مَنْ ضُرب، ذكر مَنْ سُمِّ، ذكر مَنْ عُذِّبَ وسُجِنَ... الخ. لكنه لم يتبع هذه الخطة هو نفسه، ثم زاد الأمر اختلاطاً اضطراب أوراق المخطوط الذي زاد من عدم وضوح الهدف، وأدّى إلى التكرار في كثير من الأحيان (أنظر مثلاً ص ٢٣٤، ٢٤٧، ٤٣٦). ومع ذلك بقي الموضوع الرئيس سائداً في الكتاب ما عدا استثناءات طفيفة؛ والموضوع هو: «ذكر من ابتلي بأن قُتل أو حُبس أو ضُرب أو تُهَدَّد في صدر هذه الأمة وخيارهم - أبداً في ذلك بمن قُتل من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عصرنا هذا...» (ص ٤٧)، وهو: «أذكر مَنْ ابتلي من خيار هذه الأمة وأهل العلم وأشراف الناس بأن حُبس أو ضُرب أو تُهَدَّد أو امْتَحَنَ...» (ص ٢٨٣). ورغم قَدَم أبي العرب، وأخذه عن تابعي التابعين؛ فالواضح من الكتاب أن «الصورة التاريخية» لأهل السنة من جهة، ولفئة العلماء عن نفسها ودورها من جهة ثانية كانتا قد ثَبَتَا. ففي المجال الثاني (صورة العلماء عن أنفسهم ودورهم) هناك تركيزٌ على قصة سعيد بن جبير (- ٩٤ هـ) مع الحجاج بن يوسف (٧٥ - ٩٥ هـ) الذي كان قارئاً ومفسراً للقرآن؛ وأحد كبار تلامذة عبد الله بن عباس (- ٦٨ هـ). فقد ثار سعيد بن جبير مع قراء كثيرين على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (٨٢ - ٨٤ هـ). وعندما فشلت الثورة هرب إلى مكة واختفى هناك حتى اكتشفه رجال خالد بن عبد الله القسري واليها وأرسلوه للحجاج فعذّبه وقتله. وأبو العرب يورد قصصاً كثيراً عن فنون تعذيب الحجاج لابن جبير، وشدة صبر الأخير وزهده وصلاحه (ص ص ١٩٢ - ١٩٧، ٢٠٨ - ٢٢٥). كما أن هناك تركيزاً على محنة الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩ هـ) شيخ المذهب الذي ضربه والي المدينة جعفر بن سليمان أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) مائة سوط في فتوى نُسبت إليه (ص ص ٣١٩ - ٣٢٥). وأبو العرب يؤكد لنا عن رواته أن مالكا كان يومها «سيد أهل زمانه» وكذلك من عظمت نعمة الله عليه في علمه أو عقله أو نبّله

أو ورعه - فكيف بمن جمع الله تبارك وتعالى ذلك له فيه . . . ولم يزل مالك منذ نشأ يسلب النباهة ممن كان قد سبقه إليها بظهور نعمة الله عليه وسموها به على كل سامٍ قبله من أهل بلده» (ص ص ٣١٩ - ٣٢٠). والتأكيد الأخير من بين مَجْنُ العِلْمَاءِ والزَّهَادِ على محنة خَلَقَ القرآن التي استمرت بين ٢١٨ و ٢٣٣ هـ أيام المأمون والمعتصم والواثق حتى رفعها المتوكل (ص ص ٤٣٨ - ٤٥٨). وأبو العرب يعرض أحداث المحنة وأسَاءَ العِلْمَاءِ الذين أجابوا والذين ثبتوا بالعراق (بغداد والكوفة)، والشام ومصر والمغرب. وفيما عدا ذلك فإن أبرز المضطهدين في كتاب أبي العرب هم بنو الأغلب، والحجاج بن يوسف. أما المضطهدون من جانبهم فغالبيتهم العظمى من العِلْمَاءِ الورعين العاملين الذين يعتبرهم أبو العرب حَمَلَةَ العلم، وحُرَّاسَ الإسلام. فسواء ثاروا أو جاملوا إنما يفعلون ذلك نظرة للإسلام ومصلحته؛ فمالك يقول لمن سأل عن مجاملته لأبي جعفر المنصور والمهدي: «والله لولا أنا أُجِيبُهُمْ إِذَا دُعِيتُ مَا رَأَيْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْبَلَدِ سُنَّةٌ تُذَكَّرُ». لكن التراث الثوري في التصدي والثبات غالبٌ عند أبي العرب على الصبر على البلاء والإخبات والتسليم؛ فقد كان هو في حياته كذلك. ثم إنَّ بطله المفضل بعد الإمام مالك سعيد بن المسيَّب (- ٩٤ هـ) الفقيه المدني الكبير الذي يقصُّ أبو العرب قصَّته مع الأمويين بتلذُّذٍ كبير (ص ص ٢٩٠ - ٣٠١).

أما نشرنا الكتاب فمقبولتان وإن يكن المحققان قد فشلا في إعادة ترتيب أوراق المخطوط، كما أنها فشلا في إكمال السقط في الروايات رغم وجودها في كتب الحديث والطبقات والتاريخ. والأخطاء المطبعية كثيرةٌ لكنها في طبعة العقيلي أقل منها في طبعة الجبوري. وسأذكر هنا بعض التصحيحات على طبعة الجبوري: ص ٤٥ وخزعة بدلاً من وخزية - ص ٤٨ معدان وليس معدن - ص ٥٠ قدماً في الإسلام - ص ٥٣: حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن يحيى ابن حاطب وأشياخ بدلاً من: أبو سلمة عن عبد الرحمن - ص ٥٤: وطعن كلياً قارن بصفحة ٥٢ - ص ٥٨: ولا أرى ذلك إلا حضور بدلاً من بحضور؛ وما تركتُ شيئاً هو أهم؛ بدلاً من لهم - ص ٦٥: أبو حذيفة بن الجهم بدلاً من

ابن الجَدّ ص ٦٧؛ أبو المتوكل الناجي (بالنون)؛ وزياذ بن عبدالله (عن) عوانة بن الحكم - ص ٦٩: لما كَفَّ بدلاً من بما - ص ٧٣: فطر بن خليفة بدلاً من مطر - ص ٧٥ و ١٢٥، ٢٣٤ سعيد بن جُهَّان بدلاً من جُهَّان - ص ٧٩: ابن التياح بدلاً من التياح - ص ٨١: فخذة الأدنى دون ثمود وليس الديني وربما كان المقصود ثقيفاً - ص ٨٢: ثلاث وسبعين بدلاً من وتسعين - ص ٨٧: أسيد بن جابر عن عبد الله بن مسعود بدلاً من ابن جابر بن عبدالله - ص ٨٦: رأي بدلاً من رأي في الموضوعين - ص ٨٨: النعر المجاشعي - ص ٩٥: صحة قراءة الحديث: (الإيمان قَيْد الفتك) لا يفتك مؤمن بدلاً من: لا يقتله مؤمن - ص ٩٦: اتَّخَلَّل بدلاً من أكلل؛ وأبو العالية هو غادية الجُهَّني وليس الحميني - ص ١٠٣: قتلى بدلاً من قتل؛ وفاتوا بدلاً من ماتوا وبَرَحاً بدلاً من براحا - ص ١٠٧: صحة العبارة في السطرين الأولين عن نسب قريش للمصعب الزبيري ص ١٩٣: زعموا أن الأشرقتل عبد الرحمن بن عتاب (فوقف عليه علي) وهو قتيل... فقال: (هذا يعسوب قريش) - ص ١٠٨: يُستحسن وضع عنوان فرعي: ذكر قتلى صفين - ص ١١١: وقعت الفتنة فما خَفَّ فيها بدلاً من منها - ص ١١٢: هل فيكم بدلاً من خالي - ص ١١٥: بُسر بدلاً من بشر وجارية بدلاً من حارثة - ص ١١٧: سفيهه بدلاً من سيفه - ص ١١٨: صحة العبارة: غاب عني مثلك من قومي - ص ١١٩: أطلق حُبُوته بدلاً من جفونه! - ص ١٢٦: في من بدلاً من قن من - ص ١٣٣: شمر بن ذي الجوشن بدلاً من شهر بن حوش - ص ١٣٤: أجزرتم بدلاً من أحرزتم - ص ١٤٥: الأصبغ بن بُبَاة بدلاً من بُبَاة - ص ١٧٣: أبو خليفة بدلاً من أبي حنيفة - ص ١٧٤: أبو عُبيد بدلاً من أبي عُبيدة - ص ١٨٢: فتحاً لو كان له رجال بدلاً من قبحاً لهم - ص ١٩٥: وعقبة بن عبد الغافر بدلاً من ابن العاص - ص ٢٠٥: التعريف بيزيد بن هبيرة المحاربي خطأ إذ لا شأن له بيزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقيين - ص ٢٢٦: رأيتُ عبد الله بن غالب بايع (عبد الرحمن بن محمد) بن الأشعث ابن قيس بدلاً من بايع الأشعث بن قيس - ص ٢٢٨: سلمان وبلنجر بدلاً من سليمان وبن نجر - ص ٢٣٣: الدورى بدلاً من الذروي وهو راوي كتب

وحدیث یحیی بن معین - ص ٢٥٧ : نائل بن قیس بدلاً من نائل - ص ٢٦٣ :
 عمران بن عصام الضبعی بدلاً من ابن عمار - ص ٢٦٧ : مدخل عبدالله بن
 علي بدلاً من فدخل - ص ٢٨٠ : مالك بن مغول بدلاً من ابن المعدل -
 ص ٢٩٤ القراءة والشرح خطأ فهي آية قرآنية نصها : ﴿ فاقض ما أنت قاضٍ
 إنما تُقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ : ابن الريان - ص ٣٩٨ صحة
 العبارة : أذكرني عند ربِّ هو خير من ربِّ صاحب يوسف - ص ٤٠٦ : سمعتُ
 محمد بن مسلمة بدلاً من سلمة بن محمد - ص ٤٢٦ : لتصبح بدلاً من
 تصبحن .